جراح تحت الشمس

قصص قصيرة

د.طارق البكري





دار الرُّقيّ
للطباعة والنشر والتوزيع

8
B

جِرَاحٌ تَحْتَ الشَّمْسِ

قصص قصيرة

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

2005

دار الرُّقيّ

للطباعة والنشر والتوزيع

خليوي: 00961 3 235949 بيروت ـ لبنان

تليفاكس: 00961 7 920158 ـ ص.ب.: 4101

جِرَاحٌ تَحْتَ الشَّمْسِ

قصص قصيرة

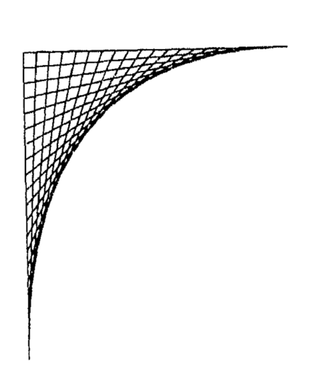
تأليف

د. طارق البكري

دار الرّقي

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ لبنان



إهداء

إلى كل قلب على وجه الأرض

أهدي هذه الجراح

عسى أن تجد من يداويها

طارق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

يعودُ المؤلفُ الأديبُ الدكتور طارق البكري في كتاب قصصيٍّ جديد يجسِّدُ صوراً حيَّة لوجوه من الواقع، قد يراها كل واحد منا في حياته، وقد يصادف بعضُنا أحداثاً متشابهة، تؤكد الصغر المتناهي لهذا العالم بكل أفراحه وأحزانه ومآسيه . . .

طارق البكري الكاتب الشاب الذي اشتهر بكتابته للأطفال، وبعد كتابه

القصصي السابق الذي صدر عن دار الرقيِّ بعنوان «جراح ساخنة»، وبعد نفاد معظم نسخ الطبعة الأولى بعد إصدارها بشهور ومعاودة طبع الكتاب مرة ثانية خلال سنة واحدة، عاد إلينا محمَّلاً بجراح جديدة... هي في الحقيقة امتداد لكتابه السابق، ومتمم له، وقد لاقى هذا الكتاب أيضاً استحسان النقاد الذين اطلعوا عليه، قبل إرساله إلى المطبعة، وقد شجَّعنا ذلك على الإسراع في إصداره ونشره، كما شجَّعَنا أيضاً ما شهدناه من الثناء الذي أَوْلَتْهُ الصحافة العربية من اهتمام بنشر مقتطفات من الكتاب السابق، ونقده من جانب النقاد.

الكتاب الجديد مليء بجراحات

كثيرة، تمتدُّ من شمال الوطن العربي إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه، فهو مزيج من الحب والأمل، والرغبة بالحياة، وتملؤه إيقاعات فنيّة جاذبة، وضعها المؤلف في قوالب خاصة متنافرة ومتناغمة، تتسق في إطار مقطوعة موسيقية واحدة رغمَ مَا نجده بينها من اغتراب وتباين وصراع.

إن الدكتور طارق البكري يستغل بساطة التعبير وسموّ الفكرة، بأسلوب نثري راقٍ، بعيداً عن أي تعقيد معنوي أو أسلوبي أصبح كثير من الكتاب يَسْتَسِيغونه فتزداد النصوص غموضاً وبعداً عن التفسير. فالنهج الذي سار عليه المؤلف سابقاً، يستمر في هذا الكتاب،

الذي يمثل برأي دار الرقي نموذجاً يحمل العمق المطلوب والوضوح المرغوب، فاستخدام الألفاظ وتجنيدها في سياقات غريبة بعيدة عن التقاط أذهان القارئ العادي، يجعل القارئ يعيش في مكان ناءٍ جداً عن النص.

وقد كان كثير من الأدباء يحرصون على المعنى والهدف أكثر من الحرص على اللفظ والتعقيدات المتنوعة، وهذا يجعل القُرّاءَ العاديِّين، وهم الشريحة الكبرى من القرَّاء، وكذلك القُرّاءَ المثقَّفين، يجدون في قصص الدكتور البكري مورداً عذباً سهلاً وغنياً، مع تأكيدنا على أن الإيغال باستعمال الألفاظ الغريبة العَسِرة على الفهم، ومحاولة إيهام

القارئ بأن الكاتب ذو ثقافة واسعة وخاصة ثقافة غربية شيء مختلف عن مفهوم الأدب الذي نريده أن يكون للجميع، بعيداً عن كل محاولات تغريب الثقافة العربية والتأثير المَرَضي.

لقد نجح المؤلف في نسج قصصه بأسلوب بسيط هادف، وأكبر دليل على ذلك رواج مؤلفاته وانتشارها في كثير من الدول العربية. ونحن اليوم إذ ننشر كتابه الجديد، نتطلع إلى غرس نبتة جديدة مليئة بالعطاء والثمار..

وندعو الله أن يُلَبِّيَ هذا الكتاب طموحَ القارئ العربي الذي هو همنا الأول في دار الرقي للنشر والتوزيع، ولا شيء غير ذلك.

وختاماً، لا بد لنا من شكر الدكتور طارق البكري لحرصه على تزويد دار الرقي بكل جديد، والتزامه بمتابعة كتبه حتى وصولها للقارئ، وكذلك حضور بعض المعارض العربية للالتقاء بالقرّاء والاستماع إلى آرائهم القيِّمة... سائلين الله تعالى أن يستفاد من هذا الكتاب وتتحقق غاياته المنشودة.

والله من وراء القصد

الناشر

أنيس سعد

مقدمة المؤلف

نادراً جداً ما أضع مقدمات لقصصي، لأنني أعتقد أن القارئ يَقْتَني الكتابَ ليقرأ القصص أكثر من قراءة المقدمات، ولكن الناشر العزيز السيد أنيس سعد رغِب إليَّ بوضع مقدمة لهذا الكتاب بناءاً على إلحاحٍ من بعض القرَّاء، وهو يعرف مدى العجز الذي يحدث لي إزاء طلب عزيز من قارئ واحد ليس بيننا معرفة مباشرة، فكيف من مجموعة قرَّاء؟

لكنّني في الحقيقة أعجز عن وضع مقدمات لقصص تأتي عفو الخاطر،

لتَجْربةٍ هنا، ولحكاية واقعية هناك، ولسبب هنالك.

وقد سألني بعض القرَّاء عن هدف التأليف عندي، وهل أهدف إلى غرس مبادئ معينة من وراء ما أكتب؟!

في الحقيقة، إن هذا السؤال المحيِّر لم أطرحه يوماً على نفسي، فالكتابة تمثل كاتبها، عقلاً وقلباً، ومن الخطأ حقيقة أن نفصل الأدب عن مؤلفه وحياته وأفكاره ومبادئه، فلا هو من عالم آخر، ولا هو يتنشق هواءاً يختلف عن الهواء الذي يتنشقه الناس.

ولا أكشف سراً عندما أقول إن الكتابة للطفل سرقت حياتي، وجعلتني أعيش في الطفولة وعالمها أكثر مما

أعيش في عالم الكبار.

ففي عالم الكبار جراحات كثيرة، أَمْلَتْ عليّ لجوءاً إلى عالم طفولي بريء، مليء بالأحلام الخالية من الحسد والتنازع والاقتتال والأشلاء اللحمية والنفسية والعقلية.

ولذلك نشرت مئات الأبحاث والقصص الخاصة بالأطفال في بيروت ومصر وسوريا والكويت والسعودية وعُمان وفرنسا وغيرها، وما زلتُ أحرص كل يوم على كتابة قصة أو خاطرة أو رأي له علاقة بالطفل، مما شجع الكثير من المواقع على الانترنت لتنشر لي وتعيد نشر كثير من مقالاتي وأبحاثي وقصصي الخاصة بالطفل.

ولعل هذه القصص هي الأقرب إلى نفسي من كل الأعمال التي أقوم بها، ورغم التزامي بالتدريس في الجامعة العربية المفتوحة في الكويت، وانشغالي بالعمل الصحافي، في عدد من الصحف الكويتية، فإن الكتابة للطفل تظلُّ الكُوَّة التي أطل منها على العالم الحقيقي الذي أحبه . . .

أما تجربتي القصصية للكبار فهي قليلة جداً، بل نادرة، وتحكمها ظروفها . . فرغم إلحاح الناشر لتكرار التجربة مرات ومرات، وخصوصاً بعد النجاح الكبير الذي لاقاه كتاب «جراح ساخنة» الذي صدر قبل شهور ونفدت طبعته الأولى في أسابيع قليلة، فإنني أشعر أن كتابتي

للكبار تجربة محدودة ومحكومة بتجارب معينة رأيت إمكانية تصويرها على الورق، لتصل إلى عدد كبير من القرَّاء، فربّما قرأ لي بعضهم طفلاً، ورغب بأن يقرأ لي شاباً . . .

وبعيداً عن كل الأوهام التي قد يتصورها كاتب هاوٍ مثلي عن ملامح الشهرة والانتشار والنجاح التي صورها لي بعض الأصدقاء والنقاد عن حسن نية وصفاء سريرة، بعيداً عن كل ذلك، أرى أن الكتابة مشروع محنة، وهي جرح نازف ومؤلم، ففي كل قصة مخاض عسير، وربما موت سريع؛ حيث إنني أرمي الكثيرَ من القصص التي أكتبها للكبار كيلا يقرأها أحد. . فجراحي

الثخينة قد يعجز البعض عن فهمها وملامستها.. ولذلك أترك الألم لنفسي، أعيش به ويعيش بي، بدلاً من نشر الجراح حتى تجفَّ الدماء تحت الشمس...

وقد اخترت في هذه المجموعة جراحات معاصرة، رأيت بعضها بعيني، وسمعت عن بعضها الآخر، جاءت بمجموعها متممة للمجموعة السابقة، على أمل أن تلقى القبول الذي لاحظته من القرَّاء الكرام في «جراح ساخنة».

[الكويت، صيف 2004]

غَزَلٌ فِي بَاصٍ مُزدَحم

فِي مقعدِ الباصِ الخَلفِيّ امرأة تُجادِلُ الرَّجلَ الَّذي يَجلسُ مَعَها وَكانا مُلتحمين إلى حدِّ الانصهارِ. . . حتَّى أنَّهما يَبدُوان شخصاً سميناً وَاحِداً لَولا رَأْسَاهما. . وَلِوَهلةٍ قَد تظنُّ أنَّهما تَوأم سِيامي. .

الرَّجُل يضحكُ بِاستمْرارٍ والمرأةُ تتحدَّثُ إليهِ بِوجهٍ عَبوسٍ ونَظَراتٍ حادَّة وهُو يُبادلُها بنظراتٍ هادئةٍ، تَسمع أحياناً صوتاً مرتفعاً لكنَّكَ لا تَستطيعُ أن تَفهمهُ بسببِ الضَّجيجِ المُنبعثِ مِن أنْحاءِ الباص المكتظّ بالرُّكّاب.

مِن مقعدي المُقابل أرى حَركات المَرأة العصبيّة، وتوسُّلات الرَّجل الَّذي يَبدو أنَّه يُحاوِل اسْتِمالة المرأة إليهِ وكسب رِضاها.. وهيَ ليستْ جَميلة جداً.. وثيابُها بسيطة تَبدو كَعامِلة في مَصنعٍ يستغلّ النِّساءَ بأعمالٍ قاسيةٍ نظيرَ أجورٍ بسيطة لا يقبلُ بها العمّال الرِّجال..

الرجلُ المُلاصقُ للمرأةِ يبدو أنَّه يُغازلُها وهِي ترفضُ مغازلته، آهٍ.. منَ الباصاتِ وما يحدثُ فيها.. غالباً ما يقومُ الرِّجال بإزعاج النّساء.. لكنَّني أذكرُ جيّداً تلكَ المرأة الَّتي كانتْ تحاولُ مُلامسةَ الرجلِ الّذي يقفُ خلفها لتغريه.. مِسكينٌ.. لم يتمالَك نفسَه فخَرَج مُسرعاً في أوّلِ مَحَطّةٍ فيما وقفتِ

المرأةُ تلكَ محتارةً تندُب حظّها التّعيس. .

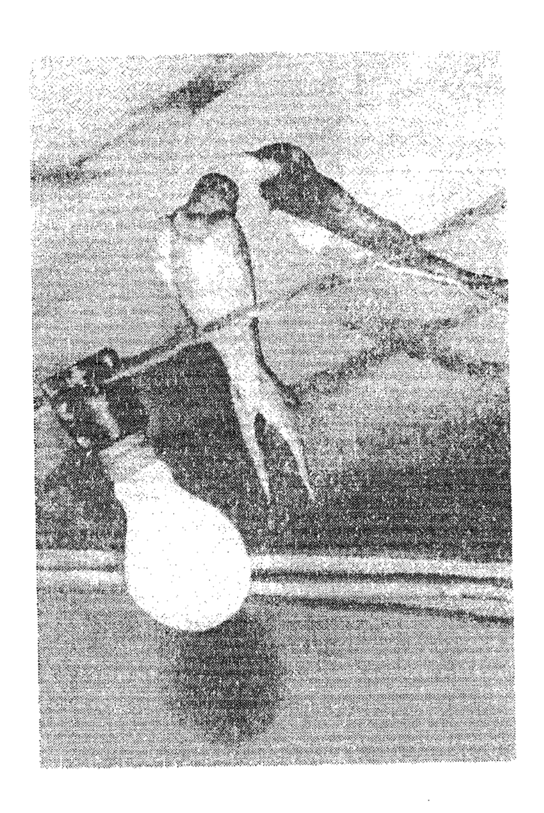
أمّا هذا الرّجل فَيبدُو جَريئاً. . لا يُضيع لحظةً دون أن يهزّ شارِبَيْه ويُحرك حَاجِبَيْه. . ويعدل ربطةَ عنُقِهِ. . والمَرأةُ تبدو أكثرَ عصبيّةً وغيرَ راضية من هذهِ الحركات الصبيانيّة. .

جاءَ قاطِعُ التّذاكر فحاولَ الرجل دفعَ قيمةِ التذكرة عنِ المرأةِ لكنّ المرأة رفضَتْ وأخرجَتْ قِطعةَ نقودٍ ودفعتْ عن نفسِها. .

تُرى، مَنْ يَظنُّ نَفسه هذا الرّجل؟! حتّى لوْ كانتِ امرأة ساقطة هلْ ستقبل بأن يَدفعَ هذا الرجل مبلغاً زهيداً لينالَ رِضاها! شيءٌ ساذِجٌ حقاً. .

أدارتِ المرأةُ وجهها نحوَ النّافذة. . لم تَعُدْ تنظرُ للرجل. . وهوَ يُحاولُ مرّة أخرى كسبَ رضاها. . .

توقّفَ الباصُ. . وقفتِ المرأةُ فَبَدَتْ سمِينة جداً قياساً بالرجلِ الّذي وَقَفَ هُوَ أيضاً. . حَمَلت المرأةُ طفلةً كانتْ تَجلسُ على المقعدِ المُقابلِ لها مباشرةً ولَمْ يَكُن ظاهراً لي. . فِيما أمْسكَ الرّجلُ بيدِهِ طِفلاً آخرَ لم أنْتبه إلى وجودِهِ أيضاً. . وبِيَدِهِ الأخرى أمْسَكَ يدَ المرأةِ لتتمكّنَ مِن الخروجِ مِنَ الباصِ وهِيَ تَدفَعُ وزنَها الثّقيلَ وعصبيّتها الزّائدة. . وانصرفتُ أبحثُ عن وجوهٍ جديدةٍ بينَ الزّحام.



القَرارُ الأخِير

أسْقط سمَّاعة الهاتِف على الأرضِ.. قطَعَ السِّلك المُوصلَ للحرارة، حَمَل آلةَ الهاتِفِ.. وَضَعها في سلةِ النُّفايات.. رمَى هاتِفهُ النقَّال من النَّافذةِ بعدَ أن سَحَب مِنه بطاقَة الهاتِف وكَسَرَها...

«لِتكُن نهاية النِّهاية.. وخِتامَ الخَاتِمة.. وانْقِضَاء فُصولِ الحياة».

قالَها بسُخرِية..

انسَحَبَ منَ العالم بصمتٍ.. شعرَ أنّهُ

عاشَ أكثرَ ممّا يستحقّ، سَنوات عمرِهِ الأربعون، بدَت كافِيةً لتشغلَ رأسَهُ وقلبَهُ شيباً وشقاوةً.. أَدْرَك في النّهايةِ أنّه يَحيا في عالمِ غرائِبيٍّ عجيب.. عالم السيِّدُ فيهِ مغرورٌ متملّق، والطامِعُ به غبيٌّ متسلِّق..

اكتشفَ أنّه يحيا في عالمٍ لا ينتَمي إليهِ.. هوَ يُشبِهُ النّاسَ.. صوتُه كصوتهم.. لغتُه كلغتهم.. ثِيابُه كثيابهم.. مركبُه كمركبهم.. بيتُه كبيتهم.. لكنّهُ ليسَ مِنهُم.. يُشبهُهم ولا يشبهُهم..

ضيَّق قدْرَ ما يستطيعُ مساحَةَ التشارُكِ معَهُم.. بَنَى في داخلِهِ مملكةً يعيشُ فيها.. كائنٌ غريبٌ صورته كالبَشَر.. لكنَّه لا يشعرُ لحظةً أنّه ينتمِي إليهم..

لقدْ صمَّمَ علَى ذلِك.. قرارٌ لا رجوعَ فيه، ربّما هو مخلوقٌ آتٍ من عَالَم آخَر، أو نوعيّة مستنسخة من البشرِ لكنّه بالتأكيدِ ليسَ منْهُم.. تنامَت في داخلِهِ مشاعِرُ الاغترابِ حتى وصلَ إلى قناعةِ العُزلةِ.. فالعُزلةُ خيرٌ منَ العيشِ مع مخلوقاتٍ لا ينتمِي إليها...

قرّرَ أن يشيخَ في الظُّلمةِ.. قرّرَ أنْ يسكُنَ العَتْمة والصمْت والسّجن.. فَلا تلمعُ بعدَ الآنَ شيبتُه، أو بِالأحرىَ صَلعَتُه، تحتَ ضوءِ الشَّمسِ ونورِ القمر.. «فلْيَكُنْ ما يَكون.. ولْيَعْلم العالمُ أنّني جنسٌ غريبٌ ليس من البشرِ».

حاولَ مراتٍ ومرات أن يَسقُطَ في عالمِهِم.. أن يشيِّدَ أحلاماً من خيالٍ،

ينسجَها خلفَ الأقنعةِ المتهاويةِ مثلَ المطرِ.. كان ينصتُ بسكونٍ لكلِّ الألسنةِ المتبدّلةِ المتصنّعةِ.. حاولَ.. لم يُنكِر أنّه حاولَ.. لكنّه كانَ يسقُطُ في كلّ محاولة.. عندَ درَجاتِها الأولى.. فلا ينجَحُ في إثباتِ ما يُريد، ولا يَقْوى على تَزويرِ ما لا يُريد.. وفي الحالينِ كانت نِصالُ الخوفِ والفزعِ والانكسارِ تنسلُّ بوحشيّةٍ ووَقاحة.. تنغرِسُ في صدرِهِ دونَ رَحمة...

كانَ يرى النّاسَ من حوْلِهِ أقْنِعةً على أقْنعةٍ.. على أقنعة..

صائبٌ واحدٌ منهم.. ومنصور.. ورمزي.. وتوفيق.. وهيثم.. وغيرهُم كثر..

صائب.. مسؤوله المباشر في العمل.. كانَ يزوِّر حتى نَفسَه.. وما أيْسرَ عليهِ أن يُغيِّر في كل يوم مبادئه...

هيثم بدَّل حتى دِينَهُ لينَالَ منصباً تافِهاً أعجَبَه..

توفيق مستعدٌّ ليبيعَ أولادِه ليسود ويترقّى..

وكانَ هو بينَهم.. وبين غيرهم.. كطابَةٍ تتلاطَمُها الأقدامُ، أو ورقة صفراءَ في مهبِّ الرِّيحِ...

هربَ منهم.. ومِن غيرهم...

لجأ إلَى آخرينَ مُغايرين مُعاكِسين.. فَلَفَظوه قبلَ أن يحيا بينَهُم.. كَشَفَهُم على ما هُم عَليهِ من عُريٍ مستورٍ قبيح..

حاولَ أن يكذِبَ على نفسِهِ.. قدَّمَ لنفسِهِ تبريراتٍ.. زوَّرَ.. نعم زوَّر.. مثلَ كثيرينَ حولَهُ، لكنّهُ مُزوِّرٌ فاشِل، لا يَنطلِي تَزويرُهُ على أحَد.. فقَذَفَتْهُ الأمواجُ على صخورِ الجِراح...

لم يَيأس.. حاوَلَ.. مرّة جديدة.. مرات جديدة..

ومضى يتصيَّدُ الألَم حيثُما تقلّب.. «ما هكذا تُورَد يا سَعْدُ الإبلُ» تراءَت له أحلامُ الشبابِ كلوحاتٍ فسيفسائيةٍ متحطِّمة.. شاهدَها على جراحِهِ الّتي تعفَّنَت من كَثرةِ ما أجَّل المداواة..

لجأ إلى بيتِهِ.. حتى بيته لم يخلُ من صياحِهِم ومُزاحمتِهِم له.. قرّرَ قَطعَ كلّ ما يمتُّ له بِصلةٍ بالبشر.. جَمعَ كلّ ماله

الذي حصدَهُ في حياتِهِ.. مبلغٌ لا بأسَ بِهِ، سيُضيفُ إليه مبلغ نهايةِ الخدمة.. وأجرى حِسْبَة بسيطة.. مبلغٌ جيّد، يكفيه ربّما 30 سنة آتية، هذا لو كُتِبَت لهُ الحياة طوالَ هذهِ المدة.. سيعيشُ بهذا المبلغِ ببساطة.. هو يملكُ المنزِلَ، ورِثَهُ عن والدِه.. يوجدُ 3 شقق مُستأجَرَة، لكنّ إيجارَها بسيطٌ لا يكفيه ليومين.. قرّر أن يُعفي المُستأجرين مِن هذا الإيجار الّذي يبدو له رَمزاً لِتَواصُله مع البشر.. تنازلَ ببساطةٍ لِكي لا يرى واحداً منهم..

سيخرجُ مرةً واحدةً في الشهرِ فقط.. يَشتري ما يحتاجُهُ من طعامٍ ويعودُ إلى بيتِه.. بل إلى سِجنِه الطّوْعِي... ويكفِي كلّ هذا الزَّيف والغرور والتملُّق...

«لـو كنتُ متزوِّجاً لازدادت حياتي سوءاً.. ولا أدري إن كانَ أولادي سيكونونَ سُجَناء مثلي.. أو مثل هؤلاءِ الأقْنِعة..».

«حتّى أنا نفسي كنتُ قناعاً لنفسي..».

«سأتّفقُ مع صاحب الدكان المجاور ليأتِيني بالطعامِ والغِذاءِ الّذي أحتاجُهُ مرّةً واحدةً في الشهرِ.. ليضَعهُ خلفَ الباب.. سأُعطيه ما يريدُهُ من مالٍ من فُتحةِ البابِ السفلى.. هكذا أفضل من الخروجِ.. لا أريدُ رؤية الأقنعة المزيفة.. حتى صاحب الدُّكان يصطنِعُ لِكُلّ مشترٍ قناعاً.. آآخٍ.. لو كانَ لهذِهِ الأقنِعةِ سوقٌ تباعُ فيها وتُشترى لراجَت

هذه الأسواقُ وأصبحت مصانِع الأقنعة أكثر منَ المخابِزِ والمطاعِم.. ولأصبحَ أصحابُها من أثرى الأثرِياء..».



العالَم يحتفِلُ بعيدِ ميلادِهِ؟!

الضوءُ يتسلّلُ من تَجاوِيفِ الخَشبِ العَفِن.. والصّمتُ بلا حُدود..

عندما تمرُّ السيَّاراتُ تُمزّقُ وِشاحَ السُّكون المنسكب كعباءة شتوية في ليلةٍ اختبأت فيها النُّجوم..

اليوم يحتفلُ كلّ العالم بميلادِه.. ولا يدري أهِيَ ليلة نحسٍ، أم سعادةٍ، الكلّ حولَ العالم يرقُصُ ويُغنّي.. وهو يَقْبَعُ في قَبْوِه الّذي لا يَربطُه بِسطحِ الأرضِ سِوى نافذة علوية من الخشبِ العفِن.. نَخَرَها السُّوسُ..

قبلَ سنين طويلة خرجَ إلى الدّنيا.. أخبرتْهُ أمُّهُ أنّهُ وُلِدَ في رأسِ السنةِ، والدُهُ خَرجَ هائِماً يبحثُ عن وسيلةِ نقلٍ تحملُ زوجتهُ إلى المستشفى.. فدَهَسَتْه سيارة مُسرعة.. لم يَعلموا عن موتِهِ إلا في اليومِ التالي، أما هو فقد وُلِدَ على يَدِ جارته العجوز.. وحمَل ميلادُه هذا التاريخ، وأسْمَتْهُ أمُّهُ باسمِ والده...

ابتسمَ.. هو يبتسمُ مرة واحدة في كلِّ عامٍ، عندما يتذكّرُ عيد ميلاده، وهل ذلك غريبٌ علَى رجلٍ جاءَ إلى الحياةِ على جثّةِ أبيهِ؟!

«كم أكرهُكَ.. لنْ أدَعَكَ تمصّ ثديي.. لولاكَ لما ماتَ أبوكَ..».

رمتهُ كعظمةٍ للكلابِ الشارِدة..

مَنْ يُصدّقُ أنّ أمًّا تكرَهُ الأمومةَ..
تحمِّلُ رضيعَها مسؤوليةَ القتلِ...

بَلْ.. مُنذُ مَتى يُحاكَمُ الأطفال..

بَلْ.. كيفَ يُحاسَبُ إنسانٌ على جريمةٍ لم يقترفْها..

«أكرهُكَ.. أنتَ مثل جلد حمار نَتِن.. الحقْ بأبيكَ خيرٌ لك..».

الجارةُ العجوز، أمّ عمَّار، هي في الحقيقةِ ليست أمًّا لعمارٍ ولا لغيرِه، وهي لم تتزوّج في الأصلِ.. فقدْ كانت دميمة قبيحة، ولديها تشوُّهات في يديها، وشفتُها العُليا تلتصِقُ بأنفِها.. وهذا شكلُها في سنِّ الصِّبا.. فتخيّل شكلها وهي فوقَ الستين..

فَمَنْ يتزوّجُ مثل هذه المرأة، قبحٌ وفقرٌ وتشوّهٌ خَلْقِي.. ما أقسى هذا العالم الّذي تحكُمُهُ معاييرُ قد يفقدُ الناسُ بعضها.. فيصبحونَ «عِظاماً للكلاب الشاردة».

أمّ عمار.. رغمَ كلّ بشاعتِها.. ورغم هروب الرجال منها وعزوفهم عن الزواجِ بها، اغتُصِبَت أكثرَ من ثلاثِ مرات، كانت ضعيفة، ووحيدة، ولا وجود لمَن يحمِيها.. كلُّ ذلكَ يشكلُ إغراءاً لرجالٍ كرهوا دمامتها.. وأفرَغوا ـ مَع ذلك ـ شَهَواتِهِمْ في جسدِها المشوَّه..

كانَ يُحدّقُ في المرآةِ المتصدِّئة.. والابتسامةُ الساخرة تَلوي شفتيه إلى اليمين..

مرة.. وهو في الرابعةِ أو الخامسة..
شاهدَ آخر اغتصابٍ لها.. كما لو كانَ
يحلمُ بشيءٍ لا يعرفُهُ..

المشهدُ لا يزالُ ماثلاً أمامَ عينيه..
يراهُ كشريطٍ سينمائي شديد الجودة..
امرأة فوقَ الستين.. تفتحُ شهيّة
لصوصٍ.. لم يجِدوا في البيتِ شيئاً
سِوى هذا اللَّحم المجعد.. وضعوهُ
أمامهُم.. جعلُوه يراقبُ ما يحدُث..
كان خائفاً.. مُرتَعِداً.. ثمَّ هربوا
وتركُوها تموتُ عاريةً بين يديه..

وماذا يمكنُ لطفلٍ في الخامسةِ أن
يفعل.. وهو يرى مثل هذا المشهد
المأساوي.. الأليم.. وماذا يستطيعُ أن
يفعلَ؟ سوى أن يحفر هذا المشهدُ في

خيالِهِ الغضّ الطريّ.. وهو لا يعرِفُ غيرها.. ولم يذُق غير طعم صدرِها الجاف.. ومرارة دمعِها الذي كان يسيلُ بين حينٍ وحين..

قصيرةٌ قامتُها.. ولعلّه ورِثَ عنها هذه القامة، مع أنّها ليستْ أمهُ الحقيقيّة.. التي لا يدري ما إذا كانت لا تزالُ تعيشُ حتى اليوم.. وحتى لو كانتْ حيَّةً، هل ستقبلُ أن يرتميَ في أحضانِها.. وهوَ كبير، بعدَ أن رفضتهُ وهو صغيرٌ محتاجٌ لحليبِها..

من حينٍ لآخر، توقِظُهُ المُفرقَعاتُ التي تتردّدُ احتفاءاً بالسَّنةِ الجديدةِ، تنثرُ خيالاته وتعيدُهُ لواقعِهِ.. يبتسمُ من جديد.. العالمُ يحتفلُ بعيدِ ميلادِه..



العمُّ صالح

نادِراً ما كُنّا نرى العمّ صالح ـ صاحب المتجر المقابل لمدرستِنا القديمة ـ ضاحكاً أو على الأقلّ مُبتسماً، كانَ على الدوامِ مُكشّراً، ويَزيدُ من جهامتِهِ أخاديدُ الزمنِ المحفورة كأخاديدَ في الصّخر. . . .

البشرةُ السمراء التي أدكنَتها الشمسُ، وصبغتها بلونٍ قاتِم، إضافةً إلى صَرامةِ العم صالح وتكشيرته المعتادة، جَعَلَنا ونحنُ طلاباً صغاراً نخشى الاقترابَ من المتجرِ، وحتى أننا نبتعدُ عن مدخلِ

المحل، ونسيرُ على الرصيفِ المقابل لنتحاشى مقابلةَ العمّ صالح وجهاً لِوجه . .

ولولا بعضُ الزَّبائن الذين يداوِمونَ على الشراءِ منهُ لأقفلَ العم صالح متجرَه الصغير . .

وكنّا نعجَبُ كيفَ لا يستغلُّ هذا الرجل وجودَ متجرِهِ على مَقْرُبةٍ من مدرستِنا ليمْلأ المتجر ببضائع يهواها التلاميذُ في مثلِ سنِّنا، وكيفَ أنّه لا يقومُ بعرضِ ما يجذِبنا إلى المحلّ، وتغييرِ هذهِ التكشيرة، وتبديلها بابتسامةٍ عريضةٍ . . .

وبدا لي أنَّ العم صالح لم يكُن مهتمًّا بالبيعِ والمتاجرةِ، كأنّهُ يريدُ قضاءَ يومِهِ ويَرحلَ . .

عشْنا معَ العمّ صالح طفولة طويلة، لم يكن أحدٌ من تلاميذِ المدرسةِ يدخُلُ متجره، ولم يكنْ أحدٌ يُنَفِّعه بقرشٍ واحدٍ. .

أصبحَ العم صالح بالنّسبةِ لنا لُغزاً. . نخشى الاقتراب منهُ، ولو كنّا بحاجةٍ إلى زجاجةِ ماءٍ نشتريها من محلِّهِ في يومٍ شديد الحرّ، بل نفضّلُ تحمُّل العطشَ على تحمُّل نَظراته الحادّة وتكشيرته الرهيبة. .

لم نكن ندري أبداً ما سِرّ العمّ صالح، ولماذا هو دائمُ التكشير، ولماذا يُصرُّ على مجافاةِ تلاميذِ المدرسةِ الذينَ قد يعتبرُهُم أيُّ صاحبِ متجرٍ آخر ثروة يجبُ عدم التفريطِ بها. .

شعرتُ أن عليَّ القيام بخطوة تكشف كل أسرار العم صالح، اعتقدت أن محله قد يكون مليئاً بالأشياء الرائعة التي يخشى عليها من أولاد شياطين مثلنا، فالمشاغبات والمشاحنات والأصوات العالية التي كانت من مشاهدنا اليومية فور خروجنا من المدرسة تجعلنا محل رصد واجتناب وخشية...

لكن.. هل أستطيع اقتحام هذا الرجل الذي يرتعد من منظره كل أطفال مدرستي؟!

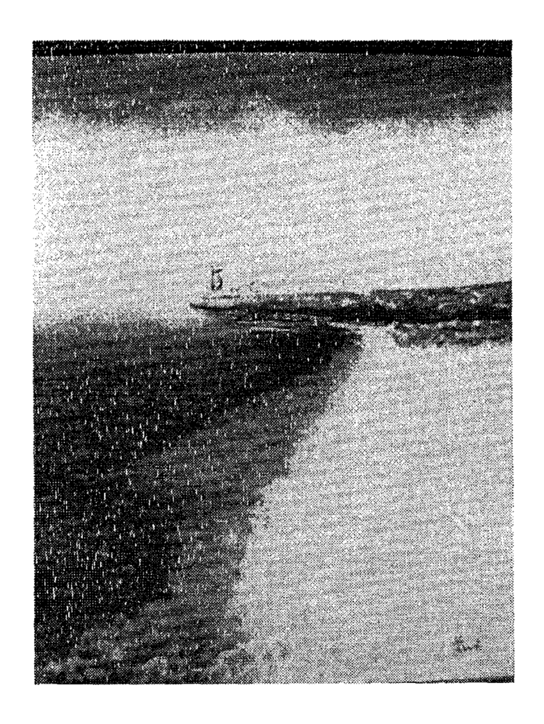
فأنا لم أكن جريئاً إلى هذا الحد في يوم من الأيام، ولست الآن مُدَّعياً لهذا الشرف، وحتى بعد أن ناهزتُ الستين من عمري ما زلت أخشى العم صالح وأمثاله.. وحتى عندما كبرت لم أجرؤ

على الاقتراب من متجر العم صالح . .

كنت أراقب العم صالح يومياً . . أَنظر إليه من المدرسة، ومن الشارع، ومن نافذة الفصل . .

عشت أعواماً أطالع حياة هذا الرجل، لكنني لم ألحظ شيئاً غير اعتيادي . .

كان يضع دائماً كرسياً خشبياً قديماً جداً على مدخل محلهِ، ويجلسُ واضعاً ساقاً على ساق . . عيناهُ تنظرانِ إلى لا شيء . . لا تراهُ يراقبُ شيئاً معيّناً ، سارحٌ ببصرهِ نحو المجهولِ . . عاش العم صالح لغزاً محيِّراً ومُرعباً . . . واليوم أبنائي الصغار في مدرستي القديمة نفسها يخشون العم صالح العجوز . . واللُّغزُ لا يزالُ محيِّراً . .



الدماءُ الدَّافئةُ

رحلةٌ طويلةٌ من العذابِ، اكتست بتعبٍ شديدٍ لا يُضاهى، وجُرح عميق أشدُّ هَوْلاً.. لا يكادُ يَرْفَعُ رأسه ماسحاً عرقه المتصبب حتى تلفحُهُ الشمسُ اللاهبة ومعها يَهْوِي سَوْطٌ دقيق رقيق يشبِهُ حدَّ السَّيفِ المحمَّى بنار متَّقدة..

حاولَ مِراراً أن يفكِّر.. مجرد تفكير.. بالفرار، لكنَّ الأفكار قد تتسلَّلُ ناحيةَ جلَّاديه فيصبحُ الظرفُ عندها أكثرَ إيلاماً.. ولو كانَ في ذلك الحَتف لما تنصَّل لحظة واحدة، فالجلادُ يتلذَّذُ برؤيتِهِ

يتلوّى من الألمِ.. وعندما يبلغُ حافةَ النهاية يطهِّر جراحه بمسحوق الليمون ويضمدها بقشور الموز العفنة المرمية على التراب والممزوجة بالعرق المنزوع بالقهر والتسلط..

مجدداً.. راودته فكرة التمرُّد.. لكنَّ الموت أهون ألف مرة من النوم فوق صفيح محمَّى.. عقوبة فعل لم يعجب الجلاد..

تذكَّر زوجته وأولاده الصغار عندما سيقَ إلى المُعْتَقَل.. لم يكن كبيرُهم يتجاوز العاشرة.. ويقول في نفسه: لو كتب الله له الحياة سيكون الآن في العشرين من عمره.. أما الصغير فكان فوق الثلاث سنوات بشهرين وبضعة أيام

عندما دهسته دبابة فمزَّقت لحمه الطري أمام أعين رفاق له كانوا يلعبون معه أمام الدار.. ومضت الدبابة دون أن يعبأ أحد ممن عليها بذاك الطفل الذي أمسى قطعة لحمٍ لصيقة بالأرض..

كم تمنى أن ينتهي مثله.. لكنَّ الجلاد لن يسمح له حتى بتقبيل الأرض..

منذ عشر سنوات - سني الاعتقال - لم يعد يسمعُ نَشْرة الأخبارِ، على أي حالٍ لم تكن الأخبار محلّ اهتمامه. كان يضحك كثيراً عندما يسمع تنديداً من مجلس الأمن أو شجباً من دولة عربية.. ويقول لأم أولاده: ماذا ينفع الشجب أو التنديد؟ هل إسرائيل تهاب الكلام؟!

العدو لا ينفع معه إلا أسلوب واحد. . ثم يُرْدِفُ قائلاً بحسرة: «كم أتمنى أن أكونَ شهيداً ولا أغادر هذه الأرض». .

كانت أم محمد فخورة جداً بزوجها . . فكل إخوته وأعمامه تركوا بيوتهم ورحلوا خوفاً من المجازر التي كانت إسرائيلُ ترتكبُها يومياً، لكنَّه فضَّل الصمود والتحدي سنوات طويلة حتى اعتقله زَبَانِيَةُ اليهود بتهمة حيازة متفجرات والتخطيط للقتل. .

زَغْردتْ أمُّ محمد عندما اعْتُقِلَ زَوْجُها، ورشَّت العطور والورود أمام دارها ودعت الجيران لتهنئتها، إغاظةً للعدو. . لكنَّ زوجها كان يشعرُ بمدى الألم المحفور في قلب هذه المرأة المؤمنة الصابرة. .

وَجْهُ الرجل لوّحته النار اللاهبة نهاراً، وشقّقته البرودة والنوم في العراء ليلاً. فقد قضت عصابات العدو أن يمضي سنوات الاعتقال برفقة عدد من إخوانه المعتقلين في أماكن بعيدة جرداء يعمل في الحراثة والبناء ونقل الصخور الثقيلة.. وكانت مهمته أَشْبَهَ بمهمة الثور الذي كان يملكه قبل أن تقضي عليه طفلة يهودية تلهو برشاش صغير..

مدة طويلة انقضت.. لم يعد يعرف عن أم محمد شيئاً.. كان يقول: ربَّما فرَّت مع ما تبقى لها من أولاد.. أو ربما قتلها اليهود..

في كل يوم كانت الأفكار تعصف في عقله وقلبه، ماذا بقي لنا من حياة،

أوَنَظلّ نعمل في هذا الذلّ الكريه؟! أوَنستمرّ في هذه المهانة؟! الموت لا بد أنه أهون من هذه الآلام.. فنحن نموت كل يوم ألف مرة..

قرَّر أبو محمد أن يضع حداً لمأساته، لم يحك لأحد من أَشِقَّاءِ الألم عن قراره، فقد كان متأكداً أن فيهم من يعمل لصالح العدو وينقل له ما يدور بين المعتقلين.. فخطط.. وقرر..

كان يجمع كل يوم مقداراً قليلاً من زيت السراج بحيث لا يكشف أحد نقصان الزيت.. وبعد مدة ملأ زجاجة كبيرة وتيقن أن الوَسَنَ قد لامس قلوبهم وعقولهم.. فانسلَّ خارجاً إلى خيمة قائد المعتقل، وألقى الزجاجة بعد أنْ أشعل

قطعة قماش مبللة وضعها على فم الزجاجة، فما هي إلا لحظات حتى اشتعلت الخيمة بمن فيها.. فراح الجنود يطلقون النار بجنون ظنًّا أنهم يتعرضون لهجوم.. واستفاق الجميع من ذهولهم ليجدوا جثة أبي محمد تسبح في دماء دافئة..



كان أبي طبيباً

قَرْيتي بعيدة.. لم تَصِلْها الطرقات المعبَّدة، لم تَصِلْها الكهرباء إلا في السنوات الأخيرة..

في وسط القرية عين ماء باردة.. تحيط بها بيوت مبعثرة بعشوائية من كل جانب..

بيوت الطين لا تزال كما كانت.. الناس بسطاء كما كانوا..

أغلب سكان القرية من كبار السن.. الشباب غادروا إما للدراسة وإما

للعمل.. يعودون إليها في العطلات والمناسبات السعيدة والحزينة..

أما أنا فقد ولدت في العاصمة.. حيث يعمل أبي طبيباً، اشْتُهر فتنافست عليه المستشفيات الكبرى.. ومُدَرَّجات التدريس الجامعية..

نشأتُ في العاصمة الكبيرة.. درست في أحسن المدارس، حصلت على أفضل تعليم.. ذهبت إلى الأندية الفخمة..

لكنّني.. في نهاية كل أسبوع تقريباً.. أتخلى عن كل ذلك.. أتوجه برفقة أبي وأمي في رحلة طويلة تستغرق ساعات، نركبُ القطار، ثم سيارة الأجرة، وأخيراً نستخدم الدوابَّ لأن الطرقات المعبدة لم تصل إلى قريتي..

اعتدت على ذلك حتى أصبح شيئاً منِّي . .

أعود من المدرسة ظهر الأربعاء . . يعود أبي من عمله . . أمي تجهز حاجات السفر . . في المساء نكون في القرية . .

أهل القرية اعتادوا هم أيضاً على ذلك . . ينتظروننا مساء كل يوم أربعاء . . يجهزون لنا الطعام المصنوع في بيوتهم . . يعرفون أن أبي يحب طعام القرية الصحي اللذيذ . .

أكثر من أربع ساعات نقضيها على الطريق . . بعد وصولنا إلى المنزل، ينتقل أبي فوراً إلى عيادة ملاصقة أعدَّها خصيصاً لأهل القرية . . يتفقد حالها . . نظافتها . . يسأل الخالة أم قاسم عن

تعقيم الأدوات والإبر.. يطمئن من الخالة التي كانت تَعْتَني بالمنزل وتجهز العيادة.. عندما يتأكد أن كل الأمور على ما يرام.. يعود إلى البيت لتناول طعام العشاء.. يقول لأمي جملةً حَفِظْتُها: «أمامنا يومان مُرْهقان.. لننم الآن ونستيقظ بنشاط في الصباح الباكر»..

كنا نُمْضي يومين في القرية.. نعود مساء الجمعة إلى العاصمة بفرح أكبر وسعادة لا توصف..

عيادة أبي كانت مجانية.. أهل قريتي فقراء.. لم يكن يتقاضى من المرضى قرشاً واحداً.. بل كان يساعدهم.. يعطيهم الدواء.. يجري لهم العمليات الجراحية، من كان يحتاج إلى عناية

خاصة يرسله إلى العاصمة. . يدخله المستشفى على حسابه الخاص. .

تمضي عطلات الأسبوع غالباً بانشغال تام. . باستثناء حالات خاصة يضطر فيها أبي للبقاء في العاصمة أو للسفر للمشاركة في مؤتمر أو للاطلاع على تطور ما في مجال الطب، لكنه عندما يعود يخصص أياماً إضافية للقرية، يتركنا أنا وأمي في العاصمة من أجل متابعة دراستي. .

أحببت أبي. .

كان مخلصاً في عمله. . صادقاً في تعامله. . لم ينتظر من أحد مكافأة ولا شكراً. .

الأطباء والممرِّضون والعاملون في المستشفى يظنون أنه يختفي يومي الخميس والجمعة من أجل الراحة والاستجمام.. لم أره يوماً يخبر أحداً عن أفعاله التي أَفْخَرُ بها..

عوَّدني أبي على ذلك..

كنت أخرج معه راضياً.. أتوجه معه إلى العيادة لأساعده في العمل.. أنظم دخول المرضى.. أضبط المواعيد.. أكتب الأسماء.. أُدخل من يحتاج إلى علاج فوري..

وأمي أيضاً.. لم تَشْكُ من نَمَطِ حياتها يوماً.. كنت أراها سعيدة سعيدة.. تسبقنا إلى العيادة.. تنظفها مع الخالة أم قاسم.. ترتب الأوراق.. تعقِّم

الأدوات.. تستقبل المرضى بوجه بشوش ضاحك..

كانت فخورة مثلي بأبي.. تفرح كثيراً عندما ترى مريضاً يخرج من العيادة رافعاً يديه يدعو لأبي أن يحفظه من الأمراض والأوجاع..

يخصص أبي صباح الجمعة ليزور بيوت المرضى الذين لا يستطيعون الذهاب إلى العيادة.. كنت أتنقل معه من بيت إلى بيت، نظل على هذه الحال حتى موعد الصلاة.. نسبق المؤذن إلى المسجد.. نجد أهل القرية بانتظار أبي يرحبون به.. يشكرونه.. يستحي أبي، يقول لهم: «لا شكر على واجب» يتمتم بصوت منخفض «ادع لي يا جدي.. ادع

لي يا عمي، يا أخي.. ادْعُ لي.. ادعوا لنا بالخير..»..

أحببت أبي..

وددت لو أعيش عمري لأحمل حقيبته.. أتنقل معه لأرى البسمة على وجوه الناس.. وأسمع الألسنة تدعو له..

كنت فخوراً جداً بما يفعل.. وعشت سعيداً سعيداً..

وجاء اليوم الذي بكيت فيه..

بكت أمي كما لم يبك أحد من قبل..

جاء اليوم الذي بكت فيه القرية كلها..

بقيت فخوراً بأبي.. حدثت الناس عنه لأول مرة..

أخبرتُ أصدقائي.. جيراني.. أخبرت المُعَزِّين.. إلى أين كان أبي يذهب في عطلة نهاية الأسبوع..

ترحَّموا عليه.. قالوا: «خسارة لا تعوَّض..»..

مضت الأيام..

كبرت.. تخرجت من الجامعة.. تزوجت..

أصبح عندي أولاد..

بقيت أذهب في عطلة نهاية كل أسبوع إلى قريتي.. إلى عيادة أبي..

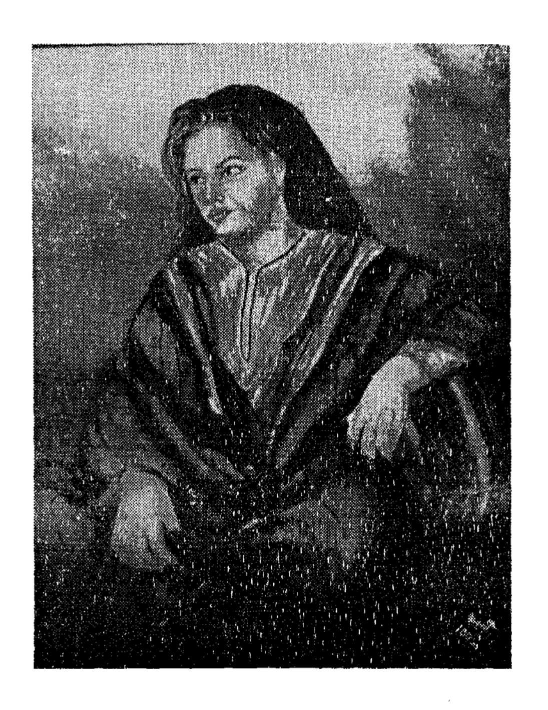
تساعدني زوجتي.. أولادي.. ابنة الخالة أم قاسم..

كنت أقول بعد تناول طعام عشاء الأربعاء:

«أمامنا يومان مُرْهِقان.. لننم الآن.. ونستيقظ بنشاط في الصباح الباكر»..

صرتُ طبيباً مثل أبي.. كلما رآني أهل القرية قالوا: «رحم الله أباك.. من خلَّف ما مات»..

فخرت بأبي حياً وميتاً.. أردت أن يفخر بي أولادي كما فخرت بأبي..



أخيراً.. انْتَصَرتْ

منذ الصغر وهي تشعر أنها مختلفة عن الآخرين..

لكنها لم تكن تعبأ بكل النظرات والتعليقات.. تشعر أن في داخلها قوة خفية، أقوى من كل الظروف الصعبة.. شَقَّتْ طريقها بصعوبة بالغة، ناضلت بجسارة.. كانت تعلم أن إصرارها ينبع من داخلها..

في دراستها كانت متفوقة.. في عملها كانت جادة منظمة.. لكنها لم تستطع أن تَثْبُتَ في مكان..

وجدتْ نفسها أخيراً في مكتب بعيد.. بضعة موظفين وعدد قليل جداً من المراجعين.. المبنى كبير، لكنهم وضعوها في مكتب منعزل مع مجموعة من زملائها الذين نفوهم أيضاً إلى هذا المكان لأسباب لها علاقة بسلوكهم السيئ مع المراجعين..

منذ اليوم الأول.. وهي تدرك بشاعة المكان الذي استقرّت فيه..

والآن لم يتغير شيء.. التعليقات السخيفة إياها.. النظرات التافهة نفسها..

دخلت ورَمَتْ نفسها فوق مقعدها المنعزل في زاوية بعيدة عن الضوء..

ألقت حقيبة يدها بلا مبالاة . . لم تعد تلقي عليهم حتى تحية الصباح، أرادت هذه المرة أن تضع حداً لهذا النوع من الناس . .

تحسست نظارتها السميكة . . أمسكت أطرافها . . رفعتها عن وجهها . . مسحت عدستيها بقطعة قماش صفراء تشبه ثيابها الرخيصة. كانت متأكدة أن الجميع يحدق بها . . يتبادل الزملاء الابتسامات والنظرات . . اعتادت على مثل هذا الموقف، ولذلك فهي لا تستغرب مثل تلك النظرات المتفحصة حيناً والساخرة حيناً آخر . .

تأملت وجهها بمرآة صغيرة . . ذابت نظراتها في المرآة . . ابتسمت بمكر . .

«ليس ضخماً إلى هذا الحد، لكن هذا طَبْعُ الناس.. دائماً يبحثون عن العيوب، لا تشغلهم إلا الأشياء الشكلية.. غير مهمّ، ليذهبوا إلى الجحيم..»..

منذ اليوم الأول وهي تسمع وترى الغمز والهمس واللمز..

لم يقع في مخيلتها أنهم سيتورعون عن ذلك في المستقبل.. لكنها توقعت أن تخف التعليقات عندما يصبح الأمر عندهم عادياً..

تَوَقُّعُها كان خائباً، «الناس لن يسكتوا.. فهم يبحثون عن أي شيء يتسلّون به، فكيف والحال مثل هذه النوعية من الزملاء»..

أحدُ الخبثاء أطلق عليها لقب المرأة الفيل . . متناسياً هو نفسُه البقعة السوداء في رقبته . . حيث ينبت الشعر، فتبدو مثل حبة صُبّيْر، كأنّه استحسن هذا اللقب . . فنسي الزملاء اسمها وصاروا يذكرونها بهذا اللقب . .

صمدت . . لم تكن تريد الانسحاب . فضلت كل المواقف الصعبة على الانعزال داخل بيتها دون أن تفعل شيئاً . . ثم كيف يمكن لفتاة فقيرة يتيمة أن تعيش دون عمل . . أصرَّت على الاستمرار مهما كان الثمن غالياً . .

لم تتمكن من اكْتِسَاب صديقة واحدة . .

شكلها القبيح الضخم . . وأنفها

العريض الطويل أبعد عنها الناس.. صارت تتجنب السير في الطُّرُقات لأن الأطفال عندما يصادفونها فجأة.. يصرخون بصوت عالٍ جداً ثم يفرون بعيداً عنها..

«أحتاج إلى فترة حتى يعتادوا على هذا الأنف الكبير.. لكن هل سأصمد في هذا العمل حتى ذلك الوقت أم أنهم سينقلونني إلى مكان آخر فيه عزلة أكبر؟»..

الساعة كانت تشير إلى العاشرة.. لم يأتِ حتى الآن أحد من أجل معاملة، الأمر طبيعي جداً.. وربما يمر يوم كامل ولا يأتي أحد.. المعاملات التي لها علاقة بهذا المكتب بسيطة للغاية.. لذلك

اختاروها في هذا المكان مع مجموعة من الزملاء المعروفين بالغلظة..

دخل شخص في الأربعينات من عمره.. كثيف الشعر، قوي البنية، يحمل ملفاً ضخماً... «هذه هي الغرفة رقم 16؟» لم يجبه أحد.. قال واحد منهم بعد قليل: «لقد وصلت.. اقترب إلى هنا.. هل لديك معاملة مزعجة؟».. ضحك الرجل.. لم يلحظ غرابة المكان.. جلس على مقعد جلدي ممزق الأطراف.. أخرج مجموعة من الأوراق.. راح الموظف ينظر ويقلب بها..

أشار الموظف بعينيه لكي ينظر الرجل إلى مكان جلوس المرأة..

ثم همس له قائلاً:

«إنها «المرأة الفيل» هل سمعت بها؟!».. ثم قال ساخراً: «مسكينة، ليس لها ذنب.. كلنا فينا عيوب ظاهرة وباطنة»..

لم يفهم الرجل.. لا يشغل نفسه بهذه الأمور.. «أريد إنهاء معاملتي من فضلك.. لا يزال أمامي عدد من التوقيعات الأخرى»..

قال الموظف ضاحكاً: «إذن اذهب إليها.. سوف تنهي لك المعاملة فوراً»..

كانت تلقي برأسها على المكتب.. لا شيء مهماً.. ساعات طويلة لا تفعل فيها شيئاً..

اقترب الرجل منها بجدية.. جلس على كرسي سحبه من مكان بعيد، شعرت أن أحداً يجلس قربها.. رفعت رأسها باندهاش.. تحركت نظارتها الكبيرة.. انزلقت فوق أنفها الضخم..

تفاجأ الرجل من المشهد.. لم يكن يتوقع ذلك من «المرأة الفيل»، صدرت عنه حركة لا إرادية.. كأنه خشي أن يسقط أنفها عليه، لحظة الرعب هذه اسْتَدْعَتْ ضحكات هستيرية من زملائها الَّذين لم يتمكنّوا من السيطرة على أعصابهم، ضجت الغرفة.. أدركت أنها وقعت ضحية مقلب سخيف جداً.. تمالكت نفسها.. نظرت إلى الرجل بثقة.. أعطاها الرجل الأوراق بصمت ورهبة..

كان كل من في المكان يراقب ما سيحدث.. ليزدادوا ضحكاً وسخرية.. مرت لحظات بسيطة..

«تفضل يا سيدي.. معاملتك منتهية.. اذهب وسجلها بالديوان.. ولا تنس أن تضع عليها طابعاً مالياً..».

لم يتكلم.. لم تكن لديه الجرأة ليتكلم..

جمع شتاته المنفصل عنه في لحظة انبهار..

قام من كرسيه.. وفي عينيه إحساس بالخطأ.. ورغبة بالاعتذار..

قالت ببساطة:

«لا تقلق يا سيدي لا تقلق.. ما

حدث شيء عادي جداً.. لا تلم نفسك.. الموضوع عادي... عادي..»..

سار الرجل متثاقلاً.. خرج من الغرفة دون أن ينظر خلفه..

الحادث أضيف إلى حكايات التندُّر المتداولة من غرفة إلى غرفة..

الناس يحبون تضخيم المسائل.. في العمق وفي الارتفاع.. فكلما زاد العمق زاد الارتفاع.. ومع هذه الزيادة وتلك تزداد الفكاهة حلاوة ولذة.

الأخبار وصلت إلى الغرفة المجاورة الملاصقة أن الرجل وقع أرضاً من هول المفاجأة... في الغرفة المقابلة قالوا إن

الرجل أغمي عليه . . في الطابق العلوي قالوا إن الرجل نقلته سيارة إسعاف إلى المستشفى في حالةٍ يرثى لها . . في الطابق السفلي قالوا إن «الرجل أصابه خرس مفاجئ وكأنه رأى خرطوم فيل موضوعاً على وجه فتاة» . .

لم تكن تصلها الأخبار كلها . . لم يكن أحد ليجسر على إخبارها بها . .

كانت تسمع الضحكات والهمسات وهي تسير في الممرات والردهات . .

«إلى متى يظل هؤلاء على هذه الشاكلة؟! ألا يرتدعون عن هذه التفاهات؟» الرجل نفسه جاء بعد أيام . . قصد مكتبها، لم يكلم أحداً . . جلس على الكرسي الجلدي نفسه مقابلها

مباشرة.. أخرج من جيبه علبة صغيرة..

«ما هذه؟»..

«أرجو أن تقبليها.. عربون احترامي»..

«لا داعي لها..»..

«لقد كنت سخيفاً..»..

«لا.. لم تكن سخيفاً... كيف لو سمعت ما قيل من سخافة؟»..

«أهم يتحدثون عما حدث؟»..

«لا، بالتأكيد، لقد اخترعوا القصص منذ ذلك اليوم.. عليك أن تسمعها وتضحك»..

«أضحك؟ يا لك من سيدة غريبة»..

«أنا الغريبة!! ماذا تقول عنهم إذن.. انظر إليهم.. راقب كل واحد منهم.. في كل منهم تشوّه..»..

«آسف.. لم أحضر لإثارة خاطرك»..

«أنت تضحكني.. ألم يعد أنفي يثير خوفك؟»..

«لم يكن خوفاً بالتحديد... كان... كان...»..

«أنا أفهمك.. رأيت هذه النظرة في عيون كثير من الناس.. لكنك الوحيد الذي جئت لتعتذر»..

«لم أقصد الاعتذار»..

«إذن..»..

«مجرد تحية..»..

«أعتقد أنك تُشْفِقُ عليّ.. أنا بصحتي الكاملة.. ولا أشعر بأي انتقاص.. راضية بقضاء الله لي.. هل أنت الذي صنعت أنفك حتى تفخر به..؟»..

تضحكِ حتى يسمع كل من في الغرفة ضحكتها..

هذه أول مرة يسمعون ضحكتها الناعمة..

لم تسنح لها الفرصة قبلاً لتضحك..

الجميع كانوا يتحاشونها.. كأنها مسخ أو وباء..

«ألا تخشى على نفسك من أنفي الغليظ؟!»..

سمع بعض الزملاء ما قالت!!

كان حديثها رقيقاً جداً..

قالت:

«لا تقلق يا سيدي.. لا داعي لأن تشعر بالذنب.. قلت لك سابقاً إن الأمر عادي.. لقد اعتدت على ذلك.. يومياً تصادفني مواقف مشابهة..»..

استجمع الرجل شتاته مرة ثانية.. حاول تقديم الهدية مجدداً، لكنها كررت الاعتذار..

وضع الهدية في جيبه.. وانسلَّ خارجاً بهدوء..

الزملاء نسجوا كعادتهم عن الرجل روايات تصلح لتكون فيلماً سينمائياً..

قالوا: «إن الرجل ينتظرها كل يوم خارج مبنى عملها لينظر إليها..»..

«الرجل وقع تحت تأثير سحرٍ عملته المرأة»..

«الرجل أصيب بالهلع وفقد عقله»..

صاروا يضحكون ويتندرون..

وعاد الرجل بعد أيام ليشكرها..

«الآن ليس عندي معاملة.. فقط أتيت لأشكرك»..

«لا داعي للشكر أنا أقوم بعملي..»..

لم يكن الرجل مشفقاً ولا ساعياً لغرض.. لمس في المرأة طيبة خالصة:

«من مثلك اليوم نادر الوجود»..

أجابت بتلقائية وهي تضحك: «ومن أيضاً في شكلي.. نادر الوجود»..

سمع الجميع ضحكتها الناعمة..

ضحكة بريئة.. صافية..

احْتَسَى الرجل فنجان قهوة.. وخرج ممتنّاً..

لم تعد تضحك ولا تتكلم.. لكنها كانت سعيدة..

مرت أيام.. الزملاء تشوقوا إلى سماع ضحكتها.. شعروا بودٍّ خفي نحوها.. لأول مرة يسلِّمون عليها عند دخولهم الغرفة.. لم تعد تشعر بنظرات ساخرة..

صارت تبتسم وترد التحية..

هل ستطول إقامتها في هذا المكتب؟!

هل اعتاد الناس عليها أخيراً؟!

شعرت أنها انتصرت في النهاية.. رغم اختلافها عن الآخرين.. القوة الخفية التي في داخلها كانت كبيرة جداً.. لقد تمكنت أخيراً من تغيير الواقع.. خفَّت التعليقات... ربما يئس الناس منها، ربما اعتادوا عليها.. لكنها في النتيجة انتصرت.. وطعم الانتصار له مذاق واحد.. لم تعد تلقي بنفسها في المقعد بلا مبالاة.. لم تعد تفكر بالنظرات من حولها.. رغم أنها لم تتغير.. لكن تغيرت الأشياء من حولها..

المهم.. أنها حققت النصر.. ومعه حققت أشياء كثيرة..



جَدَّتي في عِيدِها التِّسْعين

جدتي عمرها تسعون سنة. . احتفلت قبل يومين بعيد ميلادها. . ارتدت أحلى ثيابها. . وضعت على رأسها منديلاً ملوناً. . وزينت صدرها بعقد من اللؤلؤ، ووضعت في شعرها وردة حمراء. . فجدتي تحب الحياة. .

أسمعتنا جدتي في عيد ميلادها الأخير حكايات ترويها ربما للمرة الألف، ومع ذلك، سمعناها بشغف وحب. . أعادتنا إلى الوراء أعواماً طويلة. . ذَكَّرَتْنا بطفولتنا. . وقالت إنها

ستروي لنا قصصاً أخرى جديدة عند احتفالها بالعيد المئة من عمرها . .

العيد التسعون جمع كل أفراد العائلة . . أطفالاً وشباباً وشيوخاً . . فجدي عمره سبعون سنة . . وهي في الحقيقة ليست جدتي، بل أم جدي، أعني أنها جدة أبي . . وأبي عمره خمس وأربعون سنة . .

قضينا وقتاً طويلاً ونحن نفتح الهدايا التي ملأت دار جدتي الواسعة . . الكل تسابق ليهديها هدية تعبر عن حبه لها . . أما أنا فكنت أريد هدية مختلفة . . لم أشترِ هدية من مَحَلٍّ ولا من سوبر ماركت . . أردت أن أصنع لها شيئاً بيديَّ أنا . . صنعت لها ثوباً ملوناً بقطع قماش

كثيرة ليبدو الثوب تحفة رائعة.. فأنا خياطة ماهرة، وكل طالبات مدرستي يَحْسُدْنَنِي على ذلك.. فقد علمتني جدة أبي أشياء كثيرة، فهي مدرسة.. بل جامعة لكل الكليات الجامعية..

قبل يومين فقط، عشنا مع جدتي لحظات عائلية نادرة، الجميع حضر من كل الأنحاء، حتى عَمِّي المهاجر في كندا وخالتي التي تعمل طبيبة في بلد خليجي.. وابن عمي الذي يدرس في فرنسا.. وعمتي التي تعيش في مدينة بعيدة..

كان احتفالاً حقيقياً.. لكنني في الحقيقة لا أدري كيف استوعب منزلُ جدتي كُلَّ هذا العدد من الناس..

بعضهم كان يقضي الوقت في الحديقة، وبعضهم جلس في الصالة، وبعضهم خرج إلى سطح المنزل ليتنشَّقَ الهواءَ المنعش.. وكنا جميعاً نحرص على الالتفاف حولها قدر المستطاع لنستمع إلى حكاياتها التي تكررها دون أن تنسى تفاصيلها ودون أن تمل من ذكرها.. فيما المستمعون لا يملون من الاستماع إليها، فمن النادر حقاً أن تجد واحداً لم يستمع إلى قصة منها ولو مرة واحدة لأنها ترويها باستمرار..

أما أنا فقد كنت المستمعة الدائمة.. أحفظ قصص جدتي عن ظهر قلب، وأطالبها بالمزيد وتكرار القصص.. فهي عندما تروي قصة وتعيد روايتها ترويها

بأسلوب جديد يبدو لي وكأنها المرة الأولى التي ترويها فيها . .

عشت مع جدتي طفولتي وصباي . .

بيتنا قريب من بيتها . . فأبي مثل أبيه وجده يحبون الحياة في القرية ويفضلون العيش فيها، ومن النادر أن يغادروا القرية إلا لسبب قاهر . . لذا فإننا قليلاً ما نبتعد عن جدتي، التي أَعتبرها صديقتي رغم فارق السن بيني وبينها . . والجميع يعرف كم أحبها . .

قبل يومين فقط اجتمعت العائلة كلها . . كباراً وصغاراً ليحتفلوا بعيد ميلاد الجدة العجوز . . وكانت تَعِدُهُمْ باحتفال أكبر في عيدها المئة . .

اليوم صباحاً.. ومن دون موعد مسبق؛ عاد أفراد العائلة ليجتمعوا جميعاً وليودعوا جدتي الوداع المفاجئ.. الأخير.



غَرّدْ يا بَحْرُ

ترى أين ينتهي البحر.. ومن أين يأتي الموج؟

حُلُمُهُ أن يركب سفينة تشبه «التايتنيك» ويمتطي الموج ويَدَعَ كل أحلامه على الشاطئ، يودعها تحت رماله الذهبية، ويضع مَحَارَةً فوقها علامة..

«ترى أين ينتبه ومتى يعود من هذيانه؟»..

الناس يرونه مجنوناً.. وهو يراهم مجانين!

كل يوم يقف على الشاطئ، يأتي في الصباح الباكر، ينصب خيمته، ويفرش بساطاً مخملياً ممزق الأطراف، يضع عليه حقيبة كبيرة، حقيبة السفر، مرتدياً أحلى ثيابه.. ويظل مترقباً.. متوقعاً وصول السفينة.. الحلم، في مكان من المستحيل أن تأتي إليه السفن..

هو متأكد أن السفينة ستأتي في يوم ما.. ستحمله إلى وطن يحلم به.. إلى فراغات جديدة.. تملؤها المتاهات العميقة الباردة المسجلة في أخاديد وجهه.. المتصلب..

كيف انتابته هذه الأحلام اللامعقولة.. لقد كان معافى في عقله وبدنه.. رغم كل ما كان يبدو عليه من سرحان وغفلة..؟..

الشمس بدَّلت لون بشرته.. أصبح داكناً يقترب من السواد، لكنه لم يكن مكترثاً لشيء..

طال وقت انتظاره.. ولم ييأس..

كثرت حكايات الناس حوله، «والناس تحب الحكايا كما تحب الأرض المطر»..

ظل المشهد اليومي على حاله، بل صار جزءاً من البحر.. اعتاد الناس عليه. ولم يعودوا يتكلمون، ليس لأنهم لا يحبون الكلام، بل ربما لأنهم لا يجدون شيئاً جديداً يقولونه..

صار الرجل قطعة من الشاطئ.. مثل رماله وبحره.. كأنه صدفة لفظها البحر،

أو لوحة رملية نحتها فنان ماهر..

نسي الناس قصته رغم وجوده أمام أعينهم.. لم يعد قصة، والناس يحبون القصص..

وفي يوم..

وكان يوماً عادياً جداً..

تجمهر الناس على غير عادة..

تجمهر الناس دون موعد.. وصارت أعدادهم تزداد.. وقصصهم تزداد.. كلٌّ يفصِّل قصة على مقاسه..

فجأة.. اختفى الرجل..

لا خيمة.. ولا حقيبة.. ولا شيء..

وجدوا مَحَارَاتٍ كثيرة في المكان الذي اعتاد الجلوس فيه زمناً طويلاً..

مضت أيام والرجل متوارٍ.. مختفٍ.. كأن البحر ابتلعه..

وعادت القصص لتدور وتُنسج وتسبح في الهواء قبل الماء..

وبقي البحر على موعد مع السفينة.. الحلم.. والرجل لم يأتِ بعد.



حِسَابُ الزَّمَن

ببطء بالغ النفور، خَطَتْ نحو الهاتف لتُخرس هذا الرنين الذي لا ينقطع، استجمعت ما تبقَّى من قوة واهنة، ورفعت السماعة.. وخرجت الكلمات من فمها كأسياخ مُحَمَّاة على جمرٍ ملتهب.. «ألو.. نعم..»..

كان الطرف الآخر قد يئس وأغلق السماعة..

حبست أنفاسها.. مَطَّتْ شفتها السفلى ساخرة.. بعدما كانت أسرع عدَّاءة من المدرسة حتى الجامعة..

أصبحت الآن لا تقوى على اللَّحاق بهاتف مجهول، يبدو أن صاحبهُ أخطأ الرقم..

لم تكن تملك شراء هاتف لاسلكي.. المال لم يعد مشكلة، فلا وجود له أصلاً، كما أن حرارة الهاتف ستنقطع عما قريب... فالفواتير لا تُدفع، والفواتير كثيرة، ثم ما حاجتها للهاتف.. ومن يريد الاتصال بها؟ هل سيتصدق عليها أحد لدفع فاتورة الهاتف كما يدفعون للبقال قيمة اللُّقَيْمَاتِ التي تتناولها..

بل ماذا تأكل غير خضار، ومن سيطبخ لها؟ وطعامها لا يتجاوز حبة طماطم وخيارة واحدة.. وقطعة جبن..

ومع ذلك يتوهج «السكري» طمعاً بجسدها الواهن..

مسكينة.. امرأة متعففة.. قُتلت عائلتها قرب النهر.. ولاذت بالفرار، لكن شظايا لعينة سحقت قدميها وأجزاء من جسمها.. وكادت تقضي على روحها الحيَّة..

«يا ليتني متُّ معهم»..

هذ أمنيتها القديمة الجديدة.. حاولت قَتْلَ نفسها، لكنها وفي كل مرة تنكس رأسها، وترتدُّ خائفة.. «يكفيني ما أنا فيه من عذاب..»..

امرأة صلبة.. أقوى من جذور شجرة البلح المزروعة من سنين في مدخل بيتها

القديم المتهالك.. لكن الجذور تموت أيضاً..

في عينيها ألف سؤال.. أقلُّه: «من كان وراء رنين الهاتف الأقرب إلى الموت منه إلى الحياة؟».. نبضات قلبها تُسمع كرنين الهاتف.. وصوت الآه تجمد حيث التماهي والتوحد..

رأت على النهر بساطاً من الدم.. وأشلاء من اللحم..

«هذه ليست لعبة.. لتكن ما تكون!»..

هذا ما سمعته من جنود لا تعرف هويتهم.. وهي لا تحفل الآن بماض ولا مستقبل.. تريد الموت لتلحق بمن فقدتهم..

يعود الهاتف ليقطع مشهد الموت المتصل..

«من... من؟»..

ينقطع الاتصال..

هذه المرة أجابت على الفور.. كانت قرب الهاتف مباشرة، لم تكن بعد قد قررت قطع المسافة الشاقة.. «زحفاً» نحو «الرنين»، ومع ذلك لم تظفر بالمتصل..

«لا بأس.. يبدو أنه يبحث عن صوت جميل عذب.. فماذا يريد بعجوز مثلي؟»..

عَلَّقَتْ مبتسمةً لأول مرة منذ شهور طويلة..

ابتسامة ساخرة.. تشبه ابتسامة الموناليزا.. لكنْ هناك فرقٌ كبيرٌ وشتَّان ما بين ابتسامة وابتسامة..

باب البيت يظل مفتوحاً على الدوام..

البقال القريب يأتي من يوم ليوم يحضر بعض الطعام الذي يدفع ثمنه الجيران.. يظن أن العجوز تخفي ثروة.. يبحث بعينيه غالباً.. وبيديه من حين لآخر.. في دُرْج هنا.. وكيس هناك.. ويحرك برجله أثاثاً متهالكاً... ربما... ربما..

هي تفهم ما يفكر به.. «ومن أين المال؟»..

«مسكين هذا الرجل أكثر مني . . وماذا سينفعه المال؟ . . لو كان معي هل قبلت من الناس إحساناً؟» . .

لو استطاعت الوصول إلى الباب وسَدَّهُ إلى الأبد لفعلت . .

«هو بالتأكيد يستغل طيبة الناس ويأخذ منهم أموالاً مضاعفة ثمناً لحبة طماطم وخيارة واحدة . . . وقطعة جبن . . » . .

«الناس طيبون . . لكن من يحميهم من الجشع؟» . .

«آه لو أموت فسيموت هذا الرجل من غيظه . . بل أظنه هو الذي سيقتلني طمعاً بثروة موهومة لا وجود لها إلا في عقله . . » . .

«النهر الذي شرب دماء الأحبة أخذ معه هذه الثروة..

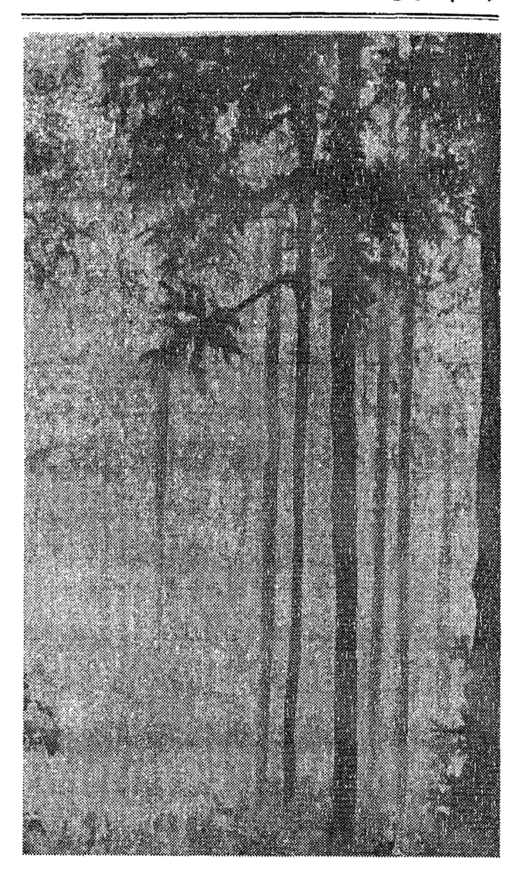
ومن يقدر على لملمتها من قعر النهر.. ومن بطون السمك..»..

عاد الهاتف يرن..

لكنها لم تَأْبَهْ به.. ستقطعه هي قبل أن تقطعه مصلحة الهاتف.. هي لا تريد هاتفاً في الأصل..

استجمعت ما تبقى لديها من قوة.. أمسكت بالسلك الرفيع.. سحبته ببطء بالغ الفتور... ألغت حرارته الميتة.. سجنت ذلك الرنين الساخر..

فمن يتصل.. في ساعة متأخرة.. وفي وقت متأخر... خارج حساب الزمن..



المَطارُ الدولي

الطائرات تمر فوق بيته القريب من المطار الدولي.. يستقبلُ المسافرين بلوحة كبيرة رسمها على سطح منزله الإسمنتي.. أهلاً بكم.. باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية..

اعتاد على صوت الطائرات المرعب.. فالطائرة عندما تبدأ طيرانها تكون في أعلى درجات الانطلاق، وتكون المحركات بأقصى قوتها.. وعندما تهبط تبدو كأنها تسقط بحمولتها ووزنها وثقلها على سقف بيته القديم..

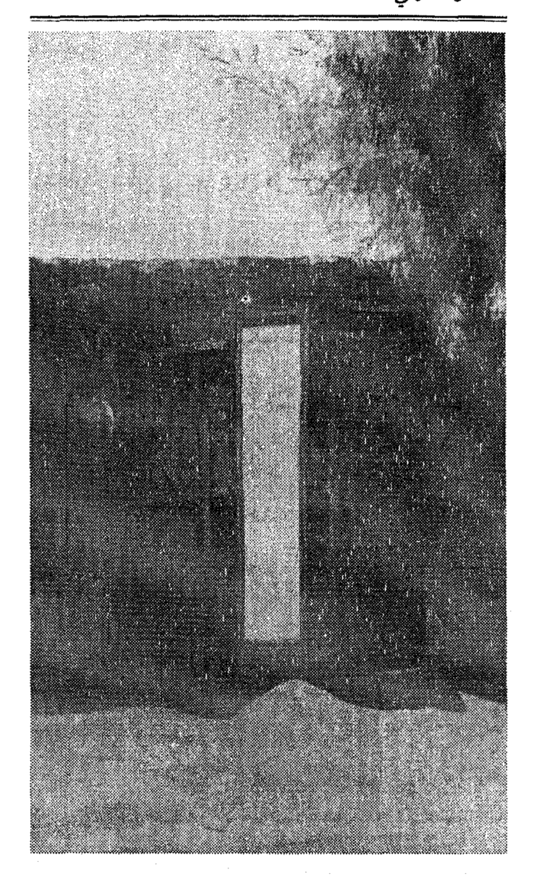
لطالما نصحه أصدقاؤه بترك هذا البيت وبيعه للشركة المشرفة على إدارة المطار، فقد عرضت عليه مقابل البيت مبلغاً نقدياً كبيراً يوازي قيمة قصر في منطقة راقية، لكنه كان يرفض دائماً بكل أدب..

يشعر أنه أصبح جزءاً من هذا المطار.. يستقبل الطائرات ويودعها.. وفي مرات كثيرة كان صوت الطائرات الرهيب يكسر نوافذ بيته الزجاجية.. لكنه كان يغيرها راضياً سعيداً.. مطمئناً لحياته على مسافة قريبة من المطار..

اشترت الشركة المشرفة على إدارة المطار كل العقارات المحيطة ببيته... ضَمَّتْها إلى أرض المطار، صار بيته داخل

المطار، وعندما كان يذكر عنوانه أو يرسل رسالة، يكتب منزل رقم (. . .) المطار الدولي. .

أصبح طيارو العالم يعرفون هذا البيت. . . يتفاءلون عندما يُقْلِعُون وعندما يهبطون، وكان يفتخر بأنه يعيش ليس قرب المطار فقط، بل في داخله. . رغم أنه لا يحب السفر ولا ركوب الطائرات.



عِطْرٌ أُنْثَوِيٌّ على رأسِ رَجُل

جلس في مقعده مرتقباً نداء الانطلاق..

يريد الوصول إلى دياره بأسرع وقت ممكن، لم يكن يحب السفر ولا حقائب السفر، ويكره ارتياد السوق لشراء هدايا السفر..

يريد الوصول بسرعة دون أن يزعج أحداً أو يزعجه أحدٌ..

ربط حزام الأمان.. منذ 5 سنوات لم يركب الطائرة، هذه هي المرة الثانية

فقط، كانت المرّة الأولى قبل خمس سنوات، عندما ترك قريته البعيدة حالماً بالثراء بعدما سمع عن بلاد النفط والأحلام التي لا تنتهي..

اليوم يعود بحقيبة يد واحدة.. وبثوب عمره 5 سنوات، وبتذكرة اشترتها له إحدى المحسنات..

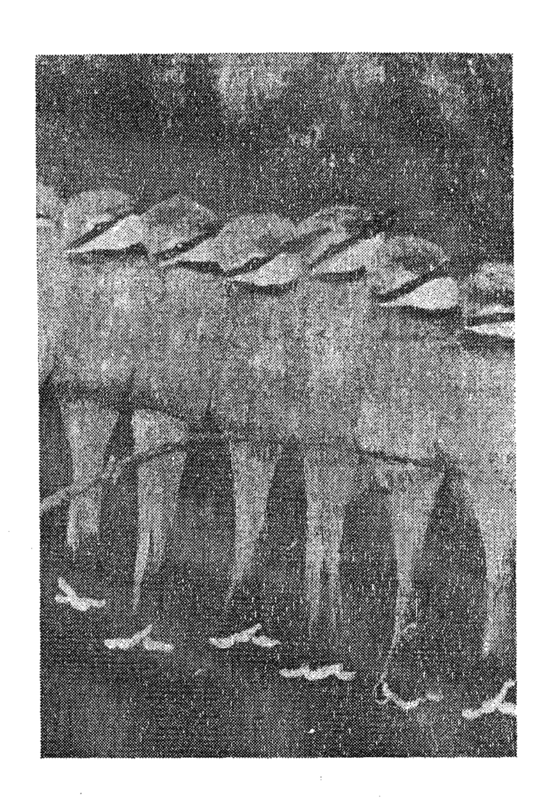
الشيء الوحيد الذي اشتراه هدية لأم عياله عطر رخيص الثمن.. لكنه فكَّر ألا يخبرها بقيمته الحقيقيَة حتى لا تسخر منه، فهو متأكد أن كل أهل قريته سيسخرون منه، إذ يعود بعد سنوات طويلة أَفْقَرَ من الأيام الماضية التي كان يعيشها في القرية..

استقبلته زوجته بفتور..

أولاده لم يعرفوه.. كانوا صغاراً عندما سافر..

أمه هي الوحيدة التي كانت سعيدة بعودة ابنها..

في المساء.. عندما اختلى مع زوجته في غرفة على سطح منزل والده، وأولاده نيام على الأرض.. فتح حقيبته وأخرج منها العطر الرخيص.. ضحكت الزوجة فتناثرت ضحكتها في كل مكان.. ظن أنها سعيدة بالهدية.. فتحت الهدية الرخيصة ثم أفرغتها على رأسه.



على الحَاجِز

رجعت بضع خطواتٍ إلى الوراء..

لا تريد عبور الحاجز العسكري.. غيَّرت رأيها..

الجندي مُصِرٌّ على تحسس خصرها للتأكد من أنها لا تحمل حزاماً ناسفاً..

لحقها الجنود.. أطلقوا رصاصات تحذيرية.. رصاصة طاشت نحوها.. فتشوا الجسد المتناثر فوق الأرض.. لم يعثروا على رشاش ولا رصاص ولا قنبلة يدويّة... ولا حتى ملقط غسيل..

تـركـوا الـجـسـد سـابـحـاً فـي بـقـعـة حـمـراء.. ومـضـوا يـبـحـثـون عـن خـصـر آخر.. عساه يكون مُزَنَّراً بحزام متفجر.



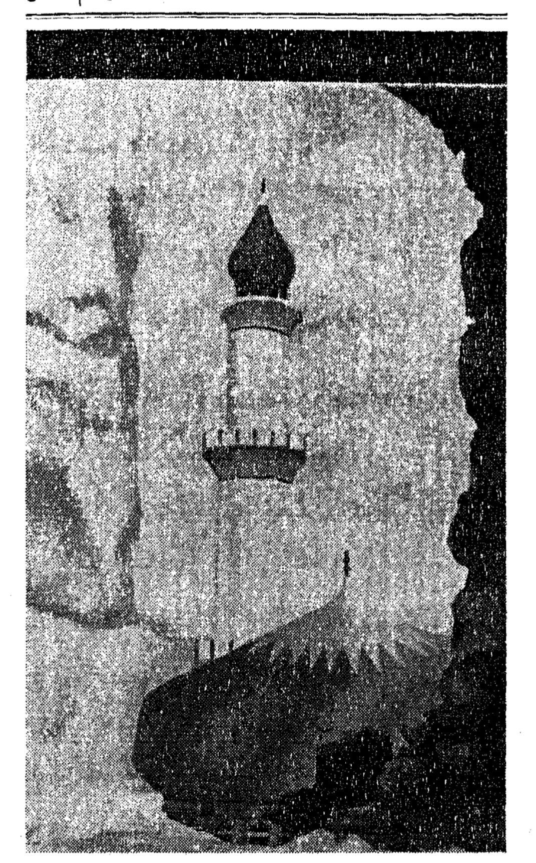
الزَّعيمُ والفَنُّ

على مدخل المدينة صورة كبيرة لزعيم ما..

على زاوية المدخل صورة أخرى.. وفي الوسط مُجَسَّمٌ للزعيم نَفْسِه..

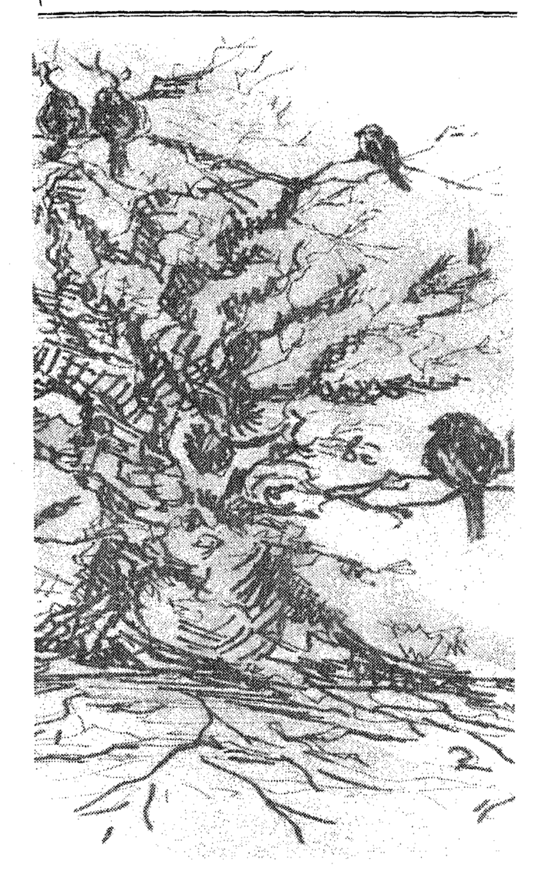
وفي تلة عالية تمثال ضخم.. وفي الأزقَّة والشوارع والأودية والأبنية.. وفي البحر والوادي والنهر والجبل..

وعندما رحل لم يجد الفنانون والرسامون والمَثَّالُون عملاً.. فقرروا اختراع زعيم جديد كيلا يتوقفوا عن «الفن».



مِيزانُ العَالَم

سمع أعضاء مجلس الأمن أن رضيعاً سوف يكبر ويفكر بقتل القاتل.. ولذلك قتلوه... قام بعض المتصدرين وقلدوه وسام البطولة لأنه أنقذ العالم من مجرم عتيد.. ودعا دعاة السلام إلى منحه جائزة نوبل، وقدموا له الهدايا سلفاً.



مِصْبَاحُ العَمْيَاء

تذهب كل يوم إلى نهر يشق المدينة.. تغسل الطبق الوحيد الذي تملكه وتعود كما تذهب «عارية القدمين»، تنام أول الليل مرهقةً وفي الصباح تعود إلى النهر.. وأثناء سيرها تصطدم بدَوْريات المحتلِّين..

تمر الأيام حتى دون أن تملأ المصباح من أنبوب نفط ضخم يخترق بيتها.



الجِسْـــرُ المُعْتَقَلُ

طلعت دبابة فوق جسر قديم . .

وقع الجسر دون مقدمات . .

حملوا الجسر الكسير ونَقَلُوهُ إلى المعتقل . .

ضربوه . . . شتموه . . . انتهكوا عِفَّته . .

ثم قالوا : «لك الحقُّ بالدفاع عن نفسك . .» . .

لم يجد الجسر مُسَوِّغاً لذلك . . فقد كان في الأساس متململاً من وجوده في

مكانه فترة طويلة من الزمن.. واعتقالُه في الزنزانة نوعٌ من التغيير.

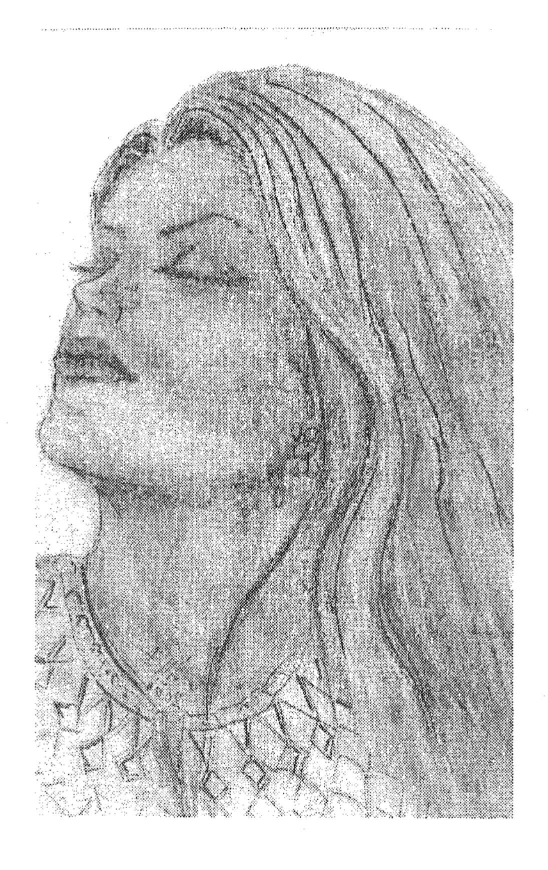


الطِّفْلُ الذي يَلْعَبُ

حمل الطفل لعبته الممزَّقةَ.. رماها تحت آلية عسكرية مجنزرة.. فتفتتت..

حمل لعبة جديدة رآها على زاوية الطريق.. أخذها فرِحاً إلى بيته..

في المساء.. لم تجد أسرتُه لا كفناً ولا تابوتاً.. لُفوا جميعاً بشراشف تنبعث منها رائحة البارود والدم.. ثم دُفنوا في تراب البيت.



مَشْهَدٌ لم يُنْشَرْ

صاح الجندي..

Go out... Go out

لم يخرج أحد..

اشتدت صيحاته وزمجراته.. نادى الجنود «أخيراً وجدنا ما نبحث عنه»..

خلعوا الأبواب.. وجدوا الأطفال يرتعدون، يحيطون بشيء ما..

والأم تتصدى لهم بصدرها..

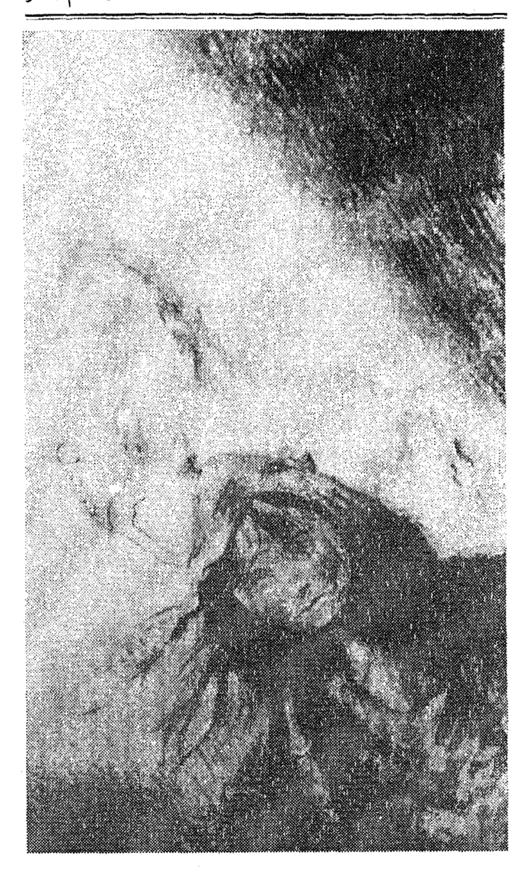
ها... ماذا تخفين؟! ابتعدي..

ضربها أحدهم بكعب البندقية..

ضرب الصغار بحذائه العسكري..

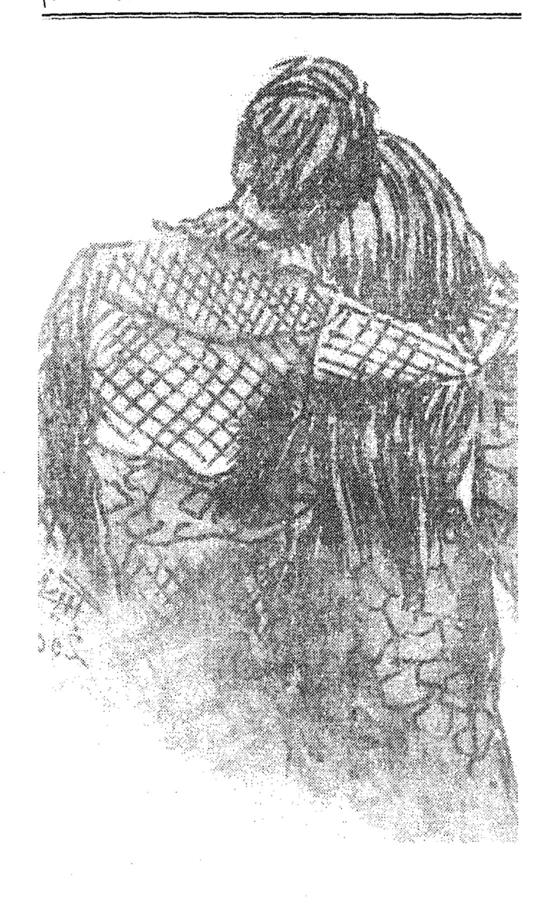
اكتشف أنهم يحمون رضيعاً.. ملفوفاً بخرقة بالية..

لكن هذا المشهد لم يجد طريقه للنشر..



البُوقُ الحَالِمُ

ظل يعزف ألحان النصر والسفينة تغوص في القيعان.. حتى جاء من يخبره بانتهاء الحفلة وانتحار المَدْعُوِّين، فلم يجد بعدها من ينفخ له موسيقاه.. فادعى أنه العازف الأخير.. فنُصبت الخيام واستُقْدمت الراقصات.. ولكنهم عندما سمعوه اكتشفوا نشازه فقطعوا عنه الهواء وأعادوه إلى السفينة التي غرقت.



فاطمةُ عندما تَغْضَبُ

فاطمة متوسطة العمر، في حوالي الأربعين من عمرها.. جميلة جداً، لم تَزِدْها السِّنُونُ إلا إشراقاً.. الابتسامة لا تغادر شفتيها.. وشعرها الأشقر المصبوغ ينسدل ناعماً وراء ظهرها مثل الشلّال، وتتركه حُرّاً يتراقص كسنابل القمح مع النسيم..

فاطمة ابنة رجل ثري جداً.. تزوجت مبكراً.. كان عمرها سبع عشرة سنة، أنجبت مرتين، هما الآن في مركزين مرموقين..

تضحك حتى تظن أن الضحكة شيء مخلوق معها.. الابتسامة شكل طبيعي في وجهها..

مرة غضبت.. ومع ذلك ظلت تضحك..

لم تستطع أن تظهر الغضب.. كأن الابتسامة تَحَجَّرَتْ فوق شفتيها..

مسكينة يا فاطمة.. الضحكة لا تفارقها..



وحيدةٌ رُغْمَ كل شيء

هي امرأة مثل النساء.. تعرف كيف تكنس وتمسح وتطبخ وتكوي الثياب وتنجب الأطفال.. ومع ذلك لم تتزوج..

تُصِرُّ أنْ لا رجلاً يستحق الفناء من أجله.. فالزواج في اعتبَارها شيء من الموت.. والعذاب قطعة من الزواج..

فكرة..

فكرةٌ واحدة كانت كفيلةً بتغيير رأيها.. بدأت الشيخوخةُ تزحف

نحوها.. حاولت طردها.. لم تستطع، وبعدما كان شُبَّانُ الحي يحومون حولها تناثروا بعيداً كما تتناثر الديدان فوق الرمال..

«أنا امرأة.. ولا أجد رجلاً يستحق الفناء من أجله»..

تلاشت هذه الجملة في شفتيها..

هي امرأة ولكن.. دون رجل..



السّـنْدِيَانَةُ

في وسط حديقة بيتها سنديانةٌ..

قالت لزوجها «إنّ السنديانة شاخت وحان وقتُ اجتثاثها.. وَعَدها أن يقطعها من جذورها عندما يجدُ وقتاً لذلك..

سألته لماذا لا تحضر شخصاً يزيلها من مكانها قبل أن تسقط وتؤذي أحداً؟!

ضحك الزوج: «منذ متى يا زوجتي العزيزة يسقط السنديان؟»..

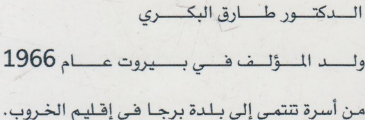
لم تتقبَّل الزوجة هذه السخرية.. شعرت بالحنق والغضب، حملت فأساً

وخرجت لتقطع الشجرة بنفسها . .

لكن الزوجة لا تعرف كيف تسقط سنديانة . . فسقطت السنديانة عليها وأصابتها بكسور . .

ظل زوجها يضحك ويقول : «ما هكذا يُقْطَعُ السنديان يا حبيبتي؟» .

فهرس المحتويات



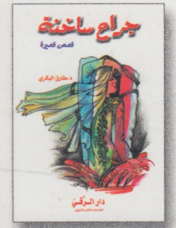
الـدكـتـور طـارق البكــري

ولـد المـؤلـف فـي بـيروت عـام 1966

من أسرة تنتمي إلى بلدة برجا في إقليم الخروب.

درس فـي مدارس المقاصد الإسلامية والتحق بجامعة بيروت العربيةً وتخصص في اللغة العربية وتخرّج بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف. تابع دراسته العليا في كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية ونال الماجستير في الصحافة الكويتية والدكتوراه في مجلات الأطفال الكويتية، وسجَّل للدراسة العليا في جامعة الكويت في دراسة نقدية أسلوبية عن أدب الأطفال. بدأ عمله الصحفي مبكراً حيث عمل في جريدة اللواء و الرسالة و الشراع، وعمل في إذاعة صوت الوطن حتى انتقاله إلى الكويت سنة 1993 للعمل في جريدة الأنباء حيث أشرف على صفحة يومية للأطفال، ثم أصبح سكرتيرا لتحرير الإصدارات الخاصة في جريدة القبس، ويعمل الآن مدرساً في الجامعة العربية المفتوحة، ويدير تحرير مجلة أولاد وبنات التي تصدرها م


Bibliotheca Alexandrina
0798140





خليوي: 235949 3 00961 تليفاكس: 920158 7 00961 ص.ب: 4101 بيروت - لبنان